الفصل الثاني

الاتجاه الوطني الاجتماعي في الشعر الفلسطيني المعاصر من ١٩١٨ إلى ١٩٦٨م.

أ ـ مفهوم الاتجاه الوطني الاجتماعي في الشعر الفلسطيني

تحديد وتوضيح

قبل عرض الشعر الاجتماعي ودراسته يحسن بنا توضيح مفهوم اتجاه هذا الشعر.

فكلمة اجتماعي منسوبة إلى «اجتماع»، وأصلها اجتمع، واجتمع القوم: انضموا «ضد تفرّقوا»(١)

والاجتماع أو علم الاجتماع: هو علم يبحث في نشوء الجماعات الإنسانية ونموّها وطبيعتها وقوانينها ونظمها، ويقال رجل اجتماعي: أي أنه يزاول الحياة الاجتماعية وكثير المخالطة للناس(٢).

وإذا كان التقاء القوم هو اجتماع. فإن الاتجاه الاجتماعي في الشعر هو الذي يعالج شؤون المجتمع وظروف العيش وقضايا الناس، ويصوّر الأخطار الخارجية والأحداث الداخلية والتطورات المختلفة وعلاقات لناس ببعضهم، وأفراحهم وأحزانهم ومعاناتهم وعواطفهم وآمالهم، وما شابه ذلك.

(١) أحمد رضا: معجم متن اللغة، مجلد١، ص ٥٦٨.
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج١، ص ١٣٥.

ب ـ الاتجاه الوطني الاجتماعي في الشعر الفلسطيني المعاصر

مقدمة لدراسة هذا الاتجاه

عاش الشعب الفلسطيني منذ بداية الانتداب البريطاني على فلسطين ووعد بلفور المشؤوم ظروفاً قاسية مليئة بالأحداث التي تتّسم بمواجهة الخطط البريطانية والصهيونية قبل عام ١٩٤٨ لإقامة الكيان الصهيوني، وبعد النكبة الأولى والثانية ازدادت معاناة الجماهير نتيجة لهذه النكبات وآثارها، وثقل مسؤوليات النضال ضد الكيان الصهيوني بغية التحرير والعودة.

وكرّس شعراء فلسطين معظم شعرهم لفلسطين في هذا الاتجاه أو ذاك، وأولوا الاتجاه الاجتماعي عناية فائقة، فصوروا الأحداث والنكبات، وآثارها، وصلابة إرادة الجماهير ومعاناتها، والنضال والتضحيات والاستشهاد، ودور المؤسسات الاجتماعية من إسعاف وتمريض ودعم، ثم حياة الغربة وشظف العيش والحنين للوطن، والأسر والاضطهاد والإقامة الجبرية واغتصاب الأرض في الداخل، واهتمّ هذا الشعر أيضاً بسائر قضايا المجتمع وتعامل الإنسان مع أخيه الإنسان، وبحث في مختلف المسائل المعيشية والتعليمية، وفي عادات الناس وأخلاقهم، وحياة العامل والفلاّح وحتى الحمّال، ثم حال اليتيم والثكلى والبائس. ولم يخلُ شعرهم من قصائد في مجالات أخرى، عندما كانت تسنح الفرص وتتهيّأ الظروف، ذلك لأنّ الشاعر يعتبر مرآة شعبه، يعكس أفراحه وأتراحه، وآماله وتطلعاته وينير له الدرب وسبيل المستقبل...

وكان للشعر الوجداني نصيب وافر في شعر بعضهم، فضلاً عن الوصف والفخر، ولما كانت قضايا الوطن تشكّل الهمّ الأول لكل أبناء فلسطين، فإن معظم هذا الشعر كان ذا صلة بهذا الوطن، وما عداه يُعَدُّ قليلاً بالنسبة إليه...

والواقع أن شعر الاتجاه الوطني الاجتماعي غزير، نظراً لكثرة الأحداث وتوالي النكبات، ومن ثمَّ تشعُّب قضايا الشعب الفلسطيني؛ ولما كان شعراء فلسطين مثل سائر الشعراء الذين يعيشون قضايا شعوبهم، فقد ازداد عددهم في هذا الاتجاه، لا سيَّما وأنّه ذو صلة وثيقة بحياتهم اليومية...

ويبدو جلياً «أن للشعر الاجتماعي رسالة أخلاقية تنبثق من رسالة الأديب في المشاركة الوجدانية في أحداث الأمّة وأمانيها وهمومها في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاحتماعية. وهذه المجالات على تنوعها وتباينها وتداخلها تحتاج إلى ذلك الشعر الذي يعيش الحياة وللحياة، وينفعل بالأحداث، ويصوّر تلك الأحداث»[1].

ويُعَدُّ هذا الشعر ملتزماً بقضايا المجتمع الفلسطيني، وما يتصل بها من شؤون وشجون، حتى أن الشعر الوجداني لدى بعض الشعراء يبقى مرتبطاً بهذا الالتزام. وعلى سبيل المثل فإن لحُبَّ عند محمود درويش يتحوَّل إلى حبّ لأرض الوطن، وما فيها من شجر وثمر، وما أشبه ذلك...

وهكذا فإن الشؤون التي يتناولها الجانب الوطني الاجتماعي في الشعر، من معاناة وتضحية وفداء في قتال العدو، ومن فقرٍ ومرض وتشرّد وحنين وحبّ، وحتى دور المرأة والمؤسسات الاجتماعية وغيرها وعيرها، كل ذلك يرتبط بالجماهير والوطن، ومن ثَمَّ بالشعر الوطني، ويصُبُّ في مجراه. وأرى أن شعر الاتجاه الوطني الاجتماعي يعد جزءاً رئيساً من شعر الاتجاهات الوطنية ولا ينفصل عنها...

ويمكن تصنيف أبرز شعراء هذا الاتجاه كما يلي:

---

(١) مصطفى محمد الفار: الشاعر أبو سلمى أديباً وإنساناً، ص ٧٥.

أولاً: شعراء ما قبل النكبة الأولى ١٩٤٨: وأبرز هؤلاء الشعراء هم:

سليم أبو الإقبال اليعقوبي، إبراهيم الدبّاغ، إبراهيم طوقان، عبد الرحيم محمود.

ثانياً: شعراء عاصروا النكبة الأولى: وأبرز هؤلاء الشعراء هم:

إسكندر الخوري البيتجالي، عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، كمال ناصر، محمد العدناني، برهان الدين العبوشي، حسن البحيري، يوسف حسون.

ثالثاً: شعراء ما بعد النكبة الأولى: وأبرزهم:

هارون هاشم رشيد، محمود درويش، توفيق زياد، محيي الدين الحاج عيسى، يوسف الخطيب، محمد القيسي.

وبما أنه قد جرى بحث مستفيض للاتجاه الاجتماعي في الشعر الفلسطيني في رسالة دكتوراه لمحمد شحاده عليان بعنوان: «الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث»، فإن ذلك يغني عن العودة إلى بحثه من جديد. . ، وليس ثمّة حاجة إلى التكرار، ولذا فإني أتوجّه فقط إلى بحث جوانب أخرى لم يتعرّض هذا الزميل لها، أو إلى جوانب تعرّض لها ولكني أرغب بحثها من زوايا مختلفة، وحسب رؤيتي الخاصة لها. . .

أولاً: الشعر في المناسبات والأحداث قبل النكبة الأولى ١٩٤٨م.

أ ـ في الأفراح ولقاء الأصدقاء

إن الشعب الفلسطيني عاش أيّام عزّ وبحبوحة قبل النكبة، إذ كان ميسوراً منعّماً، حيث أن أرضه واسعة خصبة، ثرية بالفواكه والخضار

والمعادن والحبوب، ومناخ البلاد لطيف جميل، وقد تأصلت في هذا الشعب معاني الشهامة والمروءة، وعادات الكرم واللطف والاحتفاء بالأصدقاء، وإقامة الأفراح العامرة في الأيام الملاح.

وهذا هو عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) يقدم الدليل الأول، فيغرّد بلقاء رفاقه سنة ١٩٤٦، ويهتف قلبه مُرَحّباً بهم، ويقول في قصيدته: «مَرحباً بالرفاق»: [الخفيف]

هَتَفَ القَلْبُ مَرْحَباً بالرّفاق ... ما أُحَيْلى اللّقاءَ بعدَ الفراق
يا رفاقَ التاريخِ خلّدتموه ... وهو تاريخُ ثورةٍ وانعتاق
بالبطولاتِ والمُروءةِ والدّمـ ... ـعِ وخُمْرِ الفِعالِ والأخلاق
إنّ حريّةَ الشعوبِ عروسٌ ... تَتَجلّى ليلاً على العُشّاق
قد صَدَعتم صدرَ الليالي إليها ... وَبَذَلْتُم لها كريمَ الصّداق

* * *

أيُها الثّائرونَ في العَالَمِ الرّحـ ... ـبِ على الظّالمين في الآفاق
حطّموا النّيرَ فهْو من أثَرِ الوحـ ... ـشِ على الأرضِ واعصفُوا بالوِثاق
وامْسَحُوا الظلمَ والجهالةَ والفقـ ... ـرَ من الكَوْنِ بالدّم المهراق
إنّما كنتُم فنحنُ رِفاقٌ ... وحّدَتْنا حُرّيةُ الأعناق
والتَقَيْنا على جَنَاحِ الأعاصيـ ... ـر وَفَوْقَ اللّظَى وبيضِ الرّقاق
في الميادينِ والمَعاملِ إخواناً ... وفوقَ الرُّبى وفي الأعماق
جَمَعَتْنا مبادئٌ وعهودٌ ... فالتَقَيْنا من قبلِ يومِ التّلاقي[1]

حق للشاعر أن يهنأ بلقاءِ رفاقه بعد فراقهم، وهم أهل لهذا الترحيب، لا سيّما إذا كانوا أهلاً لمكارم الأخلاق والمروءة والنضال والتضحيات، وهم الثائرون على الظالمين.

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٥٤.

ولهذا كان مصيباً عندما دعاهم إلى تحطيم نير الاستعمار وانتشال الشعب من براثن الظلم والجهالة والفقر، بفضل تضحياتهم السخيّة، ونفوسهم الأبيّة، وقد يلتقي الرفاق في كل مكان من أرض الوطن، سواء في المؤسسات أو المعامل أو فوق الرّبى، معترفاً أن مبادىء وعهوداً جمعتهم ووحدتهم قبل الفراق وما تلاه من تلاق...

وقد وفّق الشاعر في اختيار رفاق مناضلين، وفي التمني عليهم تحرير البلاد والعباد، وأحسنَ الترحيب والثناء، وأعطى كل شأن قدراً مناسباً من العناية في التعبير السليم عن المعنى الجميل، وختم بالتذكير بالأسس التي توحّد بين العرب في السرّاء والضرّاء قبل الفراق والعودة للتلاقي. وفي هذا تذكير بأنّ هذا الشعب لا بدّ وأن يعود إلى أصالته ومبادئه التي إن تمسّك بها فيستحقّق النصر بإذن الله.

ب ـ في الأحزان

في فلسطين تعدّت الهموم والأحزان الحدَّ الطبيعي المعروف في أي بلدٍ آخر، يعيش بأمن وسلام، نظراً لتوالي الأحداث فيها، وما ينجم عنها من قتل وإصابات، فضلاً عن تدمير للممتلكات واعتقالٍ ونفي وتهجير، ولهذا كثرت الهموم والأحزان في هذا القطر، وتركت بصماتها في الأدب الفلسطيني شعراً ونثراً.

ويقوم عبد الكريم الكرمي بدور طليعي في مختلف المناسبات، فيرثي رفيق عمره إبراهيم طوقان في «حفلة الأربعين» بقصيدة عنوانها: «يا أخي»، يقول فيها: [الخفيف]

كيف أبكي وكيف يبكي قصيدي ومضى اليوم طارفي وتليدي

أيْ أخي والحياةُ بعدك قفرٌ والفضاء الرَّحيب دار الحديد
اللظى ملءُ خاطري وفؤادي وإهابي والعيشُ غير رغيد
أينَ تمضي؟ . . لمن تركت القوافي والمروءاتِ خافقاتِ البنود؟
أنتَ يا واهبَ القلوب ضياءَ كيف تمضي إلى ظلامِ اللحود؟
أنت من علَّم الطيورَ غناءَ ما عهدناك صامتاً في الوفود
أين من يُرسل الأغاريدَ حتى نجتلي بارقَ الشعاعِ الوحيد؟
لهف قلبي على الليالي النديّا تِ توارتْ خلف الليالي السُّود

ثُمَّ يعود الشاعر ليذكّر بأماني الفقيد الراسعة ودوره في اليقظة، وسبقه في الشعر، فيقول: [الخفيف]

كنتَ تستقبلُ الصباح بدنيا من أماني المتيَّم المعمود
تحمل القلب مشعلَ الوحي يهدي كلَّ قلبٍ إلى جمالِ الوجود
ما سعى الشعر في المحافل إلاّ فزتَ دوماً بتاجه المعقود

ويعلّل الشاعر الأمل بالتلاقي مع الفقيد في دار الخلود، معترفاً بعجز الشعر عن الرثاء، ويقول: [الخفيف]

أيْ أبا جعفر أبا الشعر والعطـ ـرِ تنقّلْ على روابي الخلود
طِرْ كما شئت، في غدٍ نتلاقى يُجْمَعُ الشملُ في غدٍ من جديد

* * *

عجز الشعرُ أن يقول رثاءَ قمْ تكلَّمْ في يومك المشهود
إن في القلب مأتماً لك طول الـ ـعُمْرِ يبقى مُسَعَّراً بالوقود[1]

إنّها قصيدة تتسلسل من قلب الشاعر المفجوع بفقد صديقه الغالي على قلبه، وقلوب أبناء فلسطين وسائر أقطار العرب، جعلها على وزن البحر

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٤٠ ـ ٤٢.

الخفيف، وضمَّنَها أصدق مشاعر الأسى واللوعة على شاعر فلسطين والعرب، في قضاياهم الوطنية والقومية والاجتماعية الرئيسة، إذ كان صوته مجلجلاً مدوّياً، وسيبقى أثره كبيراً في نفوس جماهير شعبه على مدى الزمن. كان ينافح عن حقوق شعبه وأمانيه وبمقدمتها تحرير فلسطين، ومكافحة الخطر الصهيوني، وكان له قصب السبق في إيقاظ عقول الجماهير ودفعهم للوحدة، ونبذ الخلافات، والدعوة للتعاون، والتصدّي للخطر المحدق، الذي كان يشير إليه باستمرار، حتى أنّه توقّع النكبة إذا لم يتم تدارك الخطر...

إنّ الفقيد جدير بالتنويه وحقّ لأبي سلمى أن يبكي شاعر المناسبات كلّها، الثاقب النظر، المغرّد في دنيا العرب؛ وأحسن صنعاً عندما علّل النفس بالتلاقي مع الفقيد في جنان الخلود.

ج ـ تحريض على الثورة ضدّ الانتداب والاستغلال

تأثر شعراء فلسطين بما ساد وطنهم من قمع سلطات الانتداب للمواطنين العرب وظلمهم واستعبادهم، ومد لحق بالطبقات المسحوقة من استغلال، شارك فيه زعماء فلسطين والعرب، فعبّروا عمّا يحسون به من أوضاع وطنهم وهمومه الاجتماعية، وفاضت قصائدهم بالنّقمة والسخط، وتفجّرت إخلاصاً وحماسة في معالجة المشكلات.

وبرز الشاعر عبد الكريم الكرمي في مقدمة الشعراء الفلسطينيين الأكثر التصاقاً بواقع الشعب الاجتماعي، وأجهرهم تعبيراً عن مشاكله، لأنه آمن بأنّ الكفاح الوطني والقومي ضد الأعداء الخارجيين وعبيدهم من المستغلين العرب يهدف إلى تحرير الإنسان العربي من الاضطهاد والاستغلال.

وعندما نشبت ثورة عام ١٩٣٦، وواكبها إضراب كبير امتد ستة أشهر، انتهى بتوجيه نداء من زعماء العرب بإنهاء الإضراب لمواصلة السعي لتحقيق حلٍّ عادل، لم يطمئن هذا الشاعر إلى هذه النتيجة، لأنه لا يأمن غدر الانتداب... وحيله، ولأنه يدرك نواياه، فأطلق قصيدته المدوّية «لهب القصيد» ضمنها دعوته إلى الثورة بقوله: [المتقارب]

حُـرّيّـةُ الإنـسـان بـالـد ... مِ تُـشـتـرى لا بـالـوعـود
لا تـصـهـر الأغـلالَ غـيـرُ ... جـهـنَّـمِ الـهـولِ الـشـديـد
يـا مَـنْ يُـعِـزُّون الـحِـمـى ... ثـوروا عـلـى الـظـلـم الـمـبـيـد
بـل حَـرّروه مـن الـمـلـوك ... وحـرّروه مـن الـعـبـيـد[1]

د ـ في الأحداث

وكثرت الأحداث في فلسطين لأسباب عديدة لا تخفى عل كل ذي بصيرة. ومنها ما حدث في صيف عام ١٩٢٧، إذ بينما كان أهالي نابلس يقيمون حفلة زفاف كبرى لعدة شبّان من أبنائها هم حكمت المصري وإخوانه وأبناء عمه، أصاب البلدة زلزال فأودى بحياة الكثيرين، ممّا دفع ابن نابلس وفلسطين إبراهيم طوقان إلى نظم قصيدة طويلة بهذه المناسبة على البحر الخفيف التام بعنوان: «كارثة نابلس» قال فيها: [الخفيف]

أدمـوع الـنـسـاءِ والأطـفـالِ ... تـجـرح الـقـلـبَ أم دموعُ الـرجـالِ
بَـلَـدٌ كـان آمـنـاً مـطـمـئـنـاً ... فـرمـاه الـقـضـاءُ بـالـزلـزالِ
هـزّةٌ، إثـر هـزّة تـركـتـه ... طـلـلاً دارسـاً مـن الأطـلالِ
مـادت الأرضُ ثـمَّ شَـبَّـتْ وألقـت ... مـا عـلـى ظـهـرهـا مـن الأثـقـالِ

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٢٥.

فتهاوتْ ذات اليمين ديارٌ ... لفظت أهلها، وذات الشمالِ
بعجاجٍ تثيره ترك الدُّنيا ... ظلاماً، وشمسها في الزوالِ
فإذا الدّور وهي إمّا قبورٌ ... تحتها أهلُها، وإمّا خوالِ
لا تقف سائلاً بنابلس الثكلى ... فما عندها مجيبُ سؤالِ
هكذا نُفِّرت عن الدورِ أهلٌ ... عمَّروها، إلى كهوف الجبالِ
فالتحفنا السماءَ بعد ستورٍ ... وشفوفٍ مُذالةٍ وحجالِ
وليالي الأعراسِ يا لهف قلبي ... عَطَّلتها تقلُّباتُ الليالي
طغت الحرب خمسة ما دهتنا ... كثوانٍ مَرَّت بغير قتالِ
ربِّ لطفاً! فقد أتانا نذيرٌ ... بوباءٍ من بعد هذا الوبالِ
وجرادٌ، وكلُّ آتٍ قريبٌ ... أَوَ بعد الامحالِ من امحالِ
ربِّ إن الكروب تترى علينا ... حسبُنا كربُ هجرةٍ واحتلالِ[1]

وصف الشاعر هذه الكارثة وصفاً دقيقاً عن كثب ودون مغالاة، فأشار إلى هزّات الزلزال المتوالية، فقلبت ظهر الأرض، وألقت ما على ظهرها من المنازل والبشر، وخلّفت أطلالاً دارسة، فأصبحت الدور كالقبور يقبع أهلها تحتها...

ويمضي الشاعر في وصف هول الكارثة، التي حوّلت العرس إلى مأتم واضطرّت باقي السكان إلى الهجرة للجبال القريبة والكهوف، يبيتون في العراء، منهم المحصنة والمريض والحريض[2] والجائع والمنكوب بفقد ذويه، وأوضح أن خمسة أعوام خلت لم تكبّد البلدة مثلما تكبَّدته في ثوانٍ. وخلص الشاعر إلى الدعاء بأن يلطف الله بهذه المدينة ويحفظها من كل سوء، بعد توالي الكروب عليها، حيث سبق الزلزال جراد قضى على المزروعات،

(١) ديوان إبراهيم، ص ٤٨ و ٤٩.
(٢) الحريض: الساقط الذي لا يستطيع النهوض.

فضلاً عن مصيبة الاحتلال البريطاني وآثاره القاسية على البلاد كافةً. . .

إنّه تصوير صادق لتوالي النكبات على مدينة نابلس، يعكس قوة الحياة التي عاشها هذا الشعب بأسره، وكان عليه أن يستمر في النضال ضد الاحتلال والصهيونية، فاحتمل الجراح، وكظم غيظهُ، وتابع المسيرة، محتملاً همومه، مؤمناً، صابراً، صامداً.

ثانياً: آثار الحرب

أ ـ الحرب تزهق أرواحاً، وتخلّف جرحى وأيتاماً، ودماراً وأحزاناً، وجوعى وهموماً كثيرة. وها هو عبد الرحيم عمر يصوّر جانباً من آثار الحرب، حيث يشير إلى الحزن الذي بات في دمه، والغلبان في روحه إثر الهزيمة فيقول: [مجزوء الرمل]

في دمي حزنٌ، وفي روحي براكين تموز

وحداءٌ مبهم الأصداءِ يضوي الظلمات

مثقلاً بالخزي، بالمأساة،

أقدامي تغوز

في صحارى الملح. تيهُ الملح دربي[1]. . .

فهذا المشرّد لا يتوقف عن الشعور بالحزن، وإنما يخال البراكين تغلي في روحه غضباً ممّن شرّدوه، ونقمة عليهم، وإصراراً على الثأر منهم، ولديه أيضاً مزيج من المشاعر، وبمقدمتها الخزي بلمأساة وثقل الهموم.

ب ـ ويدفع القهر والجوع وحمى الرجوع الشاعر محمد القيسي إلى

(١) أغنيات للصمت، ص ٤٥ و ٤٦. دار الكاتب العربي، بيروت، ط١ (١٩٦٣م).

القول باسم شعبه المشرّد، في قصيده له بعنوان «قمر الجوع»: [مجزوء الرمل]

أمطري في القلبِ،
زخّاتِ عذابات وجوعْ
أمطري
أرضي ظمأى،
وأنا تجتاحني حمى الرجوعْ
أمطري أيّتها الذكرى،
ورشّي العينَ حبّاتِ دموعْ
فألمغنّي كمّمُوا فاهُ،
وسدّوا. .
بحجارة القهر بابه
خطفوا منه الربابة.[1]

وبذلك يصوّر الشاعر كيف أصبح مشرّداً، يغلّ الفقر أيامه، وتتقاذفه المحن، بعد رغد العيش، والحياة السعيدة. .

لقد فارقته أيام الغناء والطرب، وقد يحتمل كل المعاناة والألم، لكن حمى الرجوع إلى الوطن الغالي تتعاظم مع الأيام، وهو ينتظر هذه العودة بفارغ الصبر.

(١) خماسية الموت والحياة، ص ٣١. دار العودة، بيروت، د.ت.

obeikandl.com

ج ـ ولا تنسى سلمى الخضراء الجيّوسي شهداء المجزرة الرهيبة التي حدثت في دير ياسين صباح اليوم التاسع من نيسان سنة ١٩٤٨، يوم هاجمت عصابات اليهود أهالي القرية وفتكت بهم قتلاً وتمثيلاً، ولم ينج منهم إلا القليلون، وقد دفن هؤلاء دفناً جماعياً في حفرة كبيرة على إحدى تلال القرية، وبينهم معلمة القرية حياة بلابسة، صديقة الشاعرة، وقد أصيبت وهي تضمّد جراح أحد القرويين.

وإذا كان القبر الجماعي لهؤلاء الشهداء قد بات مهجوراً، فإنّ هذه الشاعرة الوفية لم ولن تنسى هؤلاء الشهداء، وفي مقدمتهم صديقتها المعلمة..، لذا فهي تكرمهم بقصيدة عنوانها «الشهيد المهجور» قائلة:

رعته الشمس والأنداء وارتاحت على كبر بقاياهُ
ونامت دون يوم الحزن عيناهُ
ألن ترتاح في قبرِ النائم العريانْ
بقايا الهيكل المهجور في الوديانْ
في دوّامة الأرياحْ؟
ألن ترتاح في قبرِ بقاياهُ؟
لقد صُنّاه في أكفان ماضينا
لقد بعناه لا أجْرٌ ولا أرباح
يوم تجارة الأرواح
عكاظ الروع عن دنياه يلهينا[1].

(١) العودة من النبع الحالم، ص ٦٨ و ٧١. منشورات دار الآداب، بيروت، ط١ (١٩٦٠م).

فارق هؤلاء الشهداء الحياة الدنيا وهم في أرض الوطن: تعمر قلوبهم بالكبرياء والعزّة، ولم يروا الأحداث المتلاحقة، وما لازمها من آلام وأحزان ومعاناة، وإذا كان هؤلاء بعض ضحايا الوطن، فإن الشاعر يعلّل النفس بالأمل في أن يرتاحوا في قبورهم، بل في جنان النعيم.

د ـ الألم والأمل

١ـ لقد أصبح هذا الشعب مثقلاً بالجراح، ولا يوشك جرح أن يندمل حتى يجدَّ جرح آخر أو أكثر، وبذلك تبقى جراحه حيّة ومتجدّدة، وما دامت الآلام ملازمة للجراح، فإنّ هذا الشعب بات متمرّساً في تلقّي الجراح وتحمّل الآلام، ومتابعة مسيرة النضال، دون أن يتزعزع له إيمان، أو تلين له قناة.

ويشير حكمت العتّيلي إلى ذلك بقوله:

ظلّ جرحي، هو جرحي،
وحياتي هي تكرار حياتي،
آه يبقى الجرح أسود
كلّما جدَّت حياتي يتجدَّد[1]!

ويصف الشاعر تجدّد الألم في جسده، فيقول:

يجيئنا الألم
يجرجر الخطا، كساحرٍ هرمْ
يلفّنا ببردتين رطبتين
ما أثقل الألمْ!

---

(١) ديوان يا بحر، ص ٣٤. دار الآداب، بيروت، ط١ (١٩٦٥م).

ونُسْكِتُ الجراح، نغفل الجراح،

ولكن الرياحْ

تنثُّ لفحها على جباهنا[1]!

٢ ـ وبرغم النكبات والمحن والأهوال فإنّ مظاهر الأمل تبزغ في العيون، وتصحو الجماهير على لعبة التاريخ، وينبثق وهج الجمر من تحت الرماد، وينتصب الصقر المقاتل جاهداً لتحرير الوطن المغتصب.

ويلخص الشاعر أحمد دحبور هذه المعاني فيقول:

ذلك الطالع من جوع المخيّم

ساخناً مثل الرغيف

ربما يأكله وحش الرصيف

قبل أن ينضج في البيت المهدَّم

ربما يقطعه سيف حزيران المثلَّم

لكنه خلف النزيف

خلف عكّاز الضعيف

يتوارى.. فإذا العالم أظلم

طاف بالحزن الأليف

كلّ أرجاء المخيّم

* * *

أمس، لمَّ الحزنَ أطفال المخيم

---

(١) ديوان يا بحر، ص ٢٦ و ٢٧.

صنعُوا منه جواداً . . فمضى يعدو الجواد

من دعا الحزن المطهم؟

من ترى ألهب أجران الرماد؟

لعبة التاريخ هذي . . تتكلم

تنهر المسحوقَ:

فلتمح السواد

واترك الصقر يصد ما أنت تعلم

ذلك الصقر المقاتل[1].

ترى هل ينكر عاقل قدرة هذا الشعب في التحوّل من حال الجوع والضعف والعجز إلى حال الثورة وقتال العدو؟

لم يكتفِ الشاعر بإبراز قدرة الجماهير على قهر الصعاب وتجاوز العقبات ليسلكوا سبيل القتال، بل إنّه استطاع أيضاً أن يظهر ببراعة ولباقة كيف أن أطفال المخيم صنعوا من الحزن جواداً وأطلقوه يعدو، ولم يعد له ثمّة أثر. ومثلما يبرز الجمر في أجران الرماد برز من خلف وشاح الحزن هذا المقاتل الثائر، المصمم على تحرير فلسطين، ومن لذلك غيره؟!

إنّه تصوير لواقع الحال، بما فيه من صور قاتمة ومشرقة، وكأنّي بالشاعر يرجو أن تتشابك الأيدي مع هؤلاء الثوّار حتى تقوى سواعدهم، وتستطيع كسر أيدي الظالمين، وإحقاق الحق، ونشر الأمن، والسلام القائم على العدل.

---

(١) ديوان أحمد دحبور، ص ١٨٩ ـ ١٩٠. دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م.

ثالثاً: في الأرض المحتلة

عانى المواطنون العرب في الأرض المحتلة صنوف الظلم والاضطهاد والتعسّف وقسوة الظروف، وكانت السلطات الإسرائيلية تهدف إلى تهجيرهم أو سلب الأرض منهم على الأقل، ولكنهم تحمّلوا الجراح والآلام وكظموا غيظهم، وتمسّكوا بالأرض الحبيبة، وأفلحوا في الصمود.

١ـ وبعد مأساة حزيران ١٩٦٧م توجهت الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان إلى الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨م، واجتمعت في حيفا بالشعراء العرب الشبّان، وأهدتهم قصيدة بعنوان «لن أبكي»، جاء فيها:

على أطلال من رحلوا وفاتوها
تنادي من بناها الدار
وتنعي من بناها الدار
وإن القلب منسحقاً
وقال القلب:
ما فعلت بكِ الأيام يا دار؟
وأين القاطنون هنا؟
وهل جاءَتكِ بعد النأي هل جاءَتكِ أخبار
هنا كانوا.. هنا حلموا
هنا رسموا مشاريع الغد الآتي
فأين الحلم والآتي
وأين همو؟
.....

وغُصَّ القلب بالأَحزان[1].

وهكذا خيَّم الحزن على الأرض المحتلة بعد رحيل أهلها، وبدت مساكن العرب مقفرة وموحشة، إذ لم يبقَ منهم في الأرض المحتلة إلا نزر قليل...

٢ ـ ويتحوّل الشاعر الصابر على الجراح إلى عاشق للأرض، ويأبى أن يغادرها ما دامت لا تستطيع السفر معه، ويقول:

آه، يا جرحي المكابر

وطني ليس حقيبه

وأنا لست مسافر

إنني العاشق والأرض حبيبه[2]!

رابعاً: الكادحون

العامل والفلاح والحمّال والبنّاء والنجار وأمثالهم هم مجموعة الكادحين الذين يتعبون ويشقون ويضحّون بهنائهم وسعادتهم، من أجل الآخرين، كي يؤمنوا لأنفسهم وعيالهم الحياة الحرّة الكريمة بعرق جبينهم، ويدفعوا عنها شبح الجوع والبؤس والحاجة، فيعمّرون البلاد، ويخدمون العباد بجدّ ونشاط وصبر، بأجور زهيدة نسبياً. إنهم يقدّمون كل عون ممكن للمجتمع، وعليهم يتوقف ازدهار البلاد وعمرانها وتقدمها، وهم يستحقّون كل محبة وتقدير ومساعدة.

---

(١) درويش ـ محمود: يوميات جرح فلسطيني، ص ٢٦. دار العودة، بيروت، ١٩٦٩م.
(٢) عبد الرحمن ياغي: شعر الأرض المحتلة في الستينات، ص ٣٤٢.

١ ـ يتحسّس الشاعر محيي الدين الحاج عيسى ظروف هؤلاء الكادحين ومعاناتهم، فيصور أحدهم، الحمّال، في قصيدة له بعنوان «الحمّال البائس»، ويبيّن كيف أنّه يحمل الأثقال، من طلوع الفجر حتى المساء، وقد تقوّس ظهره من شدة التعب، حيث يُشاهَدُ لاهثاً كثيباً، مفضلاً هذا الشقاء لنفسه الحرّة الأبيّة على مدّ يديه للعطاء، فهو غني النفس وإن قلّ المال بين يديه، ولكنّ ذلك يستوجب ايفاءه حقه، ولعلّ الله يجزيه خير جزاء.

يقول الشاعر عن هذا الحمّال: [مجزوء الرمل]

يحمل الأثقال لم ينعم بيومٍ في رخاء
من طلوع الفجر حتى يختفي نور ذكاء
وهو يبدو مثل قوسٍ بانعطافٍ وانحناء
يحمل الحمل ببخس ليس يجدي من غناء
فلكم أنت تراه يوم صيف أو شتاء
لاهثاً مرتعداً مكتئباً جمّ العناء
لم يجد في جيبه فلساً لطبّ أو دواء
أرهق النفس ولم يحصل على قوت العشاء
أرهق النفس ولم يفتح يديه للعطاء
لم يُذِلَّ الفقر نفسَ الحرّ ذات الكبرياء
فليجاز الله من ينقذه خير جزاء[1].

٢ ـ ويبيّن الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود في قصيدة له بعنوان «يا

(١) ديوان من فلسطين وإليها، ص ٢٧٤.

عامل»، جعلها على مجزوء الكامل، أنّ الكادح هو الذي يبني القصور، ويزرع الأرض والجنائن، وينير المصابيح، ويفجّر الآبار ماءً، ويحصد الغلال، وينسج الثياب، ويتمنى أن ينال قسطه من كل ذلك، ويعيش موفور الحاجة والكرامة، ويقول: [مجزوء الكامل]

يا عاملُ..

هـذي الـقـصـورُ وأنـتَ را ... فـعُ سَـبْـكِـهَـا هَـلْ هُـنَّ لَـكْ؟
والـدَّوح أنـتَ زرعـتَـهُ ... مِـنْ حَـوْلِـهـا هَـلْ ظَـلَّـلـكْ؟
والـنّـور مـن يـدك الـصَّـنـا ... عِ فـمـا حـيـاتُـك فـي الـحَـلَـكْ؟
الـحُـسْـنُ أنـتَ خَـلَـقـتَـهُ ... لـكـن سـواك لـهُ مـلـكْ
لا تـأسَ فـالـدنـيـا تـصـيـ ... ـرُ إلـيـك إنْ دار الـفـلـكْ

يـا عاملُ...

أُطـرق بـمـطـرقِـك الـرُّؤُو ... سَ إذا حَـرَمْـنَـكَ مـن مُـرادِكْ
واحـصُـد بـمـنـجـلِـكَ الـرِّقـا ... بَ إذا تـمـادت فـي عـنـادِكْ
واحـكـمْ بـأمـرِكَ فـي بـلا ... دِكَ لا تُـغَـرِّبْ فـي بـلادكْ
أنـت الـذي زرع الـحـيـا ... ةَ فَمَنْ شريكُكَ في حصادِكْ[1]؟

وإذا كان هناك من يحرم العامل أجره أو مطلبه، فإنّ الشاعر ـ بوازعٍ من ضميره ورسالته ـ ينصحه بانتزاع حقه، وإثبات دوره في بلده، لأنّ الذي زرع أولى من غيره في أن يحصد؛ وقد تدور الأيام، ويصبح العامل مالكاً لزمام الأمور.

خامساً: المؤسسات الاجتماعية

تقوم هذه المؤسسات بخدمات جُلّى للمجتمع، تلبّي بعض حاجاتهم،

(١) ديوان عبد الرحيم محمود، ص ٢٧٠.

وتداوي جراحاتهم، وتخفّف آلامهم ومعاناتهم، ومنها مؤسسات: الهلال الأحمر، والصليب الأحمر، ودور الأيتام، والمعاقين، والتدريب المهني، ومحو الأميّة، والإدارة المنزليّة، وهيئات الإغاثة والرعاية الاجتماعية، والدعم والصمود. . .

١ ـ ويشير هارون هاشم رشيد بجهود مؤسسة «الهلال الأحمر» قائلاً: [الكامل]

فاليومَ ينبثق الهلال مبشراً ... يسمو به الجنسُ اللطيف النيِّرُ
مَن يمسح الآلام عن أكبادنا ... ويريلها إلاّ الهلالُ الأحمرُ
هو لليتامى بسمةٌ من رحمةٍ ... عاشوا على تحنانها وتصبَّروا
هو للحيارى البائسين إذا دجا ... ليلُ الخطوب مبشّرٌ ومنوّرُ
هو منحةُ الله الكريم لأمّةٍ ... باتت على آلامها تتضوّرُ
هو نغمةٌ علوية فوّاحة ... تسمو بآمال النفوس وتخطرُ
تهفو له كل القلوب محبَّة ... وإليه تتّجه العيون وتنظرُ
ما لاحَ في أرضِ بوارٍ مرَّةً ... إلاّ وأنبتها قلوباً تشعرُ
أنّى اتجهت فزهرة من روضةٍ ... تحنو على بؤس الضعاف وتسهرُ
سرْ يا هلال مؤزّراً ومؤيّداً ... فالقوم لما أن طلعت استبشروا
بوركت من أملٍ يرنّ مع السّنا ... ويفوح أشذاء تطوف وتنشرُ
وغداً غداً لا بدَّ في أوطاننا ... زهو ويسعدك اللقاء الأكبرُ[1]

يتبيّن من هذه القصيدة أنّ مهمّة «مؤسسة الهلال الأحمر» كانت جامعة شاملة، يوم لم تكن قد برزت معظم المؤسسات الحديثة، فكانت تداوي المرضى، وتسعف الجرحى، وتساعد اليتامى والبائسين والمنكوبين، ولا سيّما في الخطوب، وفي مقدمة هؤلاء الممرضات اللواتي يحنين على

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

الضعاف بالبسمة والعلاج، ويسهرن عليهم برفق واهتمام، حتى يتماثلوا للشفاء، وهكذا فقد استبشر الناس بالهلال، وأملوا خيراً للعاملين فيه وللوطن.

ولا بدّ من الاعتراف بأن هذا الدور يُعَدُّ من أجلّ الخدمات الإنسانية، وأقدسها في كل زمان.

٢ ـ ولمّا كان صمود المجاهدين يعتمد على إيمانهم وبسالتهم من جهة وعلى دعمهم ومساعدتهم من جهة ثانية، فإنّ الشاعر هارون هاشم رشيد ـ مدفوعاً بوازع من ضمير وحبّ للتحرير ـ يهيب بالناس أن يتبرعوا لهم، لأنّ كلّ قرش يدفع يصبّ في تسديد طلقة للعدو، ومن ثمّ حماية حياض الوطن.

ولا يغرب عن بالنا أنّ دعم الشعراء لحملة التبرعات تُعَدُّ إسهاماً وطنياً واجتماعياً في خدمة الوطن وأبنائه.

يقول الشاعر في قصيدة له بعنوان: «تبرّعوا» [مجزوء السريع]

تبـــرّعـوا... تبرّعـوا فـكـــل قـــرشٍ يـــدفـــعُ
لـكـــم غـداً سـيـرجَـعُ طـــائـــرة ومـــدفـــعُ
تسلّحوا.. فتنجحوا وجاهدوا.. وأصلحوا
تبرّعوا بما لكم لجيشكم فتربحوا
بما لكم هيّا ابذلوا لجيشكم وأقبلوا

ويحذّر من البخل أو التراخي في البذل والعطاء، ويدعو إلى التسابق في المكرمات:

لا تمسكوا أموالكم عن عونه أو تبخلوا

تسابقوا تقدّموا لا تبخلوا أو تحجموا
الحقُّ قد ناداكمو لنصره.. فقدموا
الجيش في دفاعه عنكم وفي صراعه
في حاجةٍ لعدّةٍ تزيد في اندفاعه
هيّا ولا تأخّروا فتندموا وتقهروا
فبالرجال تظفروا وبالسلاح تُنْصَروا[1]

سادساً: المرأة الفلسطينية

لقد اتّسع دور المرأة الفلسطينية بعد عام ١٩٤٨ وازداد أهميّة عمّا كان عليه قبل ذلك، فقد كان دورها قبل ذلك محصوراً في تربية أبنائها، والعمل بالمنزل والحقل والتمريض والتعليم والمشاركة المحدودة في التظاهرات والندوات، وتزويد الثوار بالأسلحة والتموين[2]، حيث كانت نسبة المتعلمات قليلة لأسباب عديدة.

وبعد عام ١٩٤٨م أخذ دورها يتّسع تدريجاً، حتى زّت أخواتها في الأقطار العربية، ولا سيّما في ميادين النضال، ومع تقديرنا للمناضلة الجزائرية جميلة بو حيرد واعتزازنا ببطولتها، فإنّه قد برزت العشرات والعشرات من أمثالها في فلسطين.

وازداد عدد المتعلمات والعاملات في المؤسسات التربوية والطبيّة والاجتماعية والإعلامية، وبرزت منهنّ المعلمة والطبيبة والمهندسة والكاتبة

---

(١) هارون هاشم رشيد: الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٨٣.

(٢) الخليلي ـ غازي: المرأة الفلسطينية والثورة: دراسة اجتماعية ميدانية تحليلية، ص ٧١ ـ ٧٨. مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ط١، (١٩٧٧م). وأسمى طوبي: عبير ومجد، صفحات متفرقة.

والمحازبة والصحفية والمذيعة، وكثرت الاتحادات والنشاطات، وأصبح من النادر أن تخلو مؤسسة من المرأة، ولكن أهم ما تميّزت به هو المشاركة الفعّالة في مؤسسات الثورة الفلسطينية ـ على اختلافها ـ والقيام بالعمليات القتالية البطولية، ونقل السلاح والمعلومات والإسعاف[1].

وها هو الشاعر محمود سليم الحوت يصوّر الممرضة بأبيات قليلة العدد بليغة المعنى، بعد أن عولج في إحدى المستشفيات إثر اصطدام مروّع كاد يودي بحياته، ويقول: [المتقارب]

ممرّضتي يا شعاع الرّجاءِ ... ويا رحمةً في ثياب امرأهْ
لقد هيّأ الله للمتعبين ملاكاً ... فهل أنتِ مَنْ هَيَّأَه
يحومُ طيفاً على ضجعتي ... رفيقاً بحالتي السّيئهْ
. . . . . .
وكنتِ علاجي وكنتِ شفائي ... وكنتِ نهوضي من رقدتي[2]

سابعاً: الدعوة إلى العلم والأخلاق

يدرك الباحث أنّ نسبة المتعلمين عالية في صفوف الفلسطينيين بعد النكبة الأولى بوجه عام، غير أنّ الرغبة في كسب العلم أصيلة وقديمة في فلسطين، وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول من الباب الأول لدى حديثنا عن الحياة الثقافية في فلسطين، وذكرنا عدداً من أشهر العلماء الذين برزوا في فلسطين عبر العصور.

---

(١) غازي الخليلي : المرأة الفلسطينية والثورة، صفحات متفرقة بين ٨٣ ـ ١١٤. وأسمى طوبي: عبير ومجد، صفحات متفرقة.

(٢) اللهب الكافر، ص ٢٠. دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٣م.

وإذا كانت فلسطين أيام الانتداب البريطاني قد خضعت لظروف قاهرة، أدّت إلى الحدّ من نسبة المتعلمين ومستوى التعليم، فإنّ حبّ العلم ونشره بقي مستعراً في قلوب العرب هناك.

١ ـ وقد حثّ سليم اليعقوبي على نشر العلم، وإيلاء اللغة العربية عناية وافرة تصونها وتنمّيها، كي يواكب شعبه سائر شعوب العالم في عصر الحضارة والتقدم، فقال: [الرمل]

وانشروا العلم فللعلم شؤون ... وبنشر العلم نيل الأمل
وابتنوا للغة الفصحى الحصون ... قبل أن يأتي يوم الكسل
واعضدوا الشرق فبالشرق يهون ... كل ما ترجونه من عمل[١]

٢ـ ويرحّب اسكندر الخوري البيتجالي بأهل الفضل والأدب بقوله: [السريع]

يا مرحباً بالسادة النجبِ ... أهلاً بكم يا منتهى أَرَبي
كم بتُّ ظمآناً لجمعكمُ ... يا مرحباً بالفضل والأدبِ
لا تعجبوا إن قمتُ أنشدكم ... شعراً وأرقص رقصة الطربِ[٢]

إنّه تصوير جميل في الترحيب بأهل الفضل والأدب، الذين يشتاق الشاعر إليهم كثيراً، ويعتبر لقاءهم غاية أربه وأحسن مناه، والباعث على النشوة والطرب والرقص وإنشاد الشعر. إنّ هؤلاء جديرون بالحفاوة والتكريم من كل إنسان.

ثامناً: غربة وحنين

---

(١) النظرة الثالثة من ديوان «النظرات السبع»، ص ١٥.

(٢) مشاهد الحياة، ج١، ص ٢١٨. مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٧م.

بعد نكبة عام ١٩٤٨م وتشريد مئات الآلاف من أهالي فلسطين عن قراهم ومدنهم، فقد هؤلاء نعمة الاستقرار و لطمأنينة، وأخذوا يضربون في أصقاع الأرض، طلباً للأمن، وتوفيراً لسبل الحياة الكريمة، ولذلك تنازعتهم الأسفار والمشقّات، وعانوا ضيق العيش: من فقر وحرمان، ومرارة الغربة، وحرقة فراق الأقارب في الداخل والخارج، لأن الأقارب وأبناء البلدة الواحدة انقسموا أحياناً بين الداخل والخارج، حتى أنّهم كانوا في بلاد الغربة موزّعين في أكثر من بلد، فنشبت صنوف المصاعب والمتاعب في سبيلهم، وبات عسيراً على أحدهم ـ في أحيان كثيرة ـ أن يزور أخته أو عمه أو خاله ـ في قطر آخر ـ مهما حلّ بهم.

وهكذا عصفت بهذا الشعب المآسي والهموم والأحزان، وذاق كلّ ألوان اللوعة، واكتوى بنار الحنين للوطن والأحبة، وعانى مرارة الغربة وحرقة الفراق.. وباتت هذه المظاهر ملموسة في أماكن وجود المشردين بوضوح، ورددت حولها الصحف والكتب والأنباء أخباراً كثيرة لا حصر لها. ولا يرتاح مشرّد عاقل إلاّ في العودة إلى وطنه، وبجمع شمله مع أقربائه وشعبه؛ وعندئذٍ يصبح موفور الكرامة، مطمئناً سعيداً.

١ ـ وفي عام ١٩٦٤م يؤكد الشاعر محمد القيسي أن المشرّدين، وبرغم قسوة الحياة ومصاعبها، لم ولن ينسوا أحبّاءَهم، ويقول:

تُرَى مَن يُخبر الأحبابَ أنّا ما نَسيناهمْ

وأنّا نحن في المنفى نعيشُ بزاد ذكراهمْ

وأنّا ما سَلَوناهمْ

فَصُحْبَتُنا بفجر العمر ما زالت تُؤانسنا

وما زالت بهذي البيدِ في المنفى ترافقنا

* * *

أَحِبَّائي سؤالُ الليلِ يؤلمني

ويحزِنُني

لأنّي كلَّ ما أَدْريه أنّي بتُّ منفيًّا

وأنّي لَمْ أَزَل حيّا

تُعَذِّبُني وتُقْلِقُني

طُيوفُ الأمسِ والذِّكرى تُعذِّبُني

فأَجترُّ الأَسى والصَّمْتَ والحَيْرةْ

* * *

ولكني أَحِبَّائي أفيق وبيننا سَدُّ

غريبٌ في بلادِ النَّفي ينهشُ عُمْره البُعْدُ

ويُسْقِمُ قلبَه الوجدُ

تُداعِبُه سَنَا أَمَلٍ، بَدَا في أُفقِهِ واه[1].

إنّ الصحبة في مقتبل العمر ما زالت ترافق المشرّدين وتؤنسهم في الغربة، فالقريب والصديق الصالحان هما خير مكاسب الدنيا: هما زينة في الرخاء، وعدَّة في الشدّة، ومعونة في المعاش والمعاد.

---

(١) الأعمال الشعرية (١٩٦٤ ـ ١٩٨٤) ص ١٣ ـ ١٦. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١ (١٩٨٧م).

الغربة والفرقة والفقر تنهك أجسام المشرّدين، ولكنهم لا ينفكّون يأملون بالعودة، ولا يخفون شعورهم بأن الأمل في تحقيق أمنياتهم ضعيف في الظرف الراهن...

٢ـ وتحدّثنا الشاعرة دعد الكيالي عن مشاعر الحنين والشوق ـ المشتعلة في جوانحها ـ إلى ملعبها في بلدتها، وإلى ورودها هناك، وأيام السمر، وتبدي شوقها إلى الرجوع..، وتصارحنا باعتقادها أنّ ذلك لن يتمّ إلاّ بقوة عادلة.. تحطّم الأعداء الذين يقفون سدّاً في الطريق، وتقول في قصيدة لها بعنوان: «حنين»:

وأَسْأَلُ النجومْ!
أسَـائِلُ القمـرْ
عن ملعبي هناك
وياسمِينةٍ
تضمُّ أهلنـا
في سَمَرِ ٱلمساء!
أسائلُ القمرْ!
وأذرفُ الدموعْ
ويصهرُ الولوعْ
فؤادي الملوعْ
شوقاً إلى الرجوعْ
لأمسياتنا..
لأغنياتنا..
.....

وليس من رُجُوعْ
لنا وَمِنْ وجودْ..
إلاّ بقُوَّة..
تُحَطِّمُ القُيُود..[1].

٣ ـ ولا تحلو ولا تصفو الأيام للمواطن الواعي الوفيّ إلاّ بالعودة للوطن، وجمع الشمل هناك، في نعيم الدنيا، أرض الأجداد والقداسة، فلسطين الغالية. ومن هذا المنطلق يردّد ابن حيفا البارّ، حسن البحيري حنينه إلى الوطن بقوله: [الخفيف]

هل يَردُّ الزمانُ صَفْوَ الليالي ... لغريبِ الأحبابِ والأَوطانِ؟
فَيرَى الشَّمْل مِثْلما كان عِقداً ... نظمتهُ يدُ الليالي الحِسانِ
في ديارٍ كرفرفِ الخُلدِ ظلاً ... يتغنّى بحسنها الشُّعريانِ
ومغانٍ رفَّ النعيمُ عليها ... وَرَعَتها عنايةُ الرحمانِ
وربوعٍ أنسامها مُثْقلاتٌ ... بعطورِ الرَّيحان والبيلسانِ
لا تَلُمْني على حنينٍ لأرضٍ ... مِن ضِياها ضاءَ الورى القمرانِ[2]

٤ ـ وهذا هو الشاعر رجا سمرين يصوّر لنا مظاهر الفقر والشقاء والحرمان وعيش الخيام في أرض الغربة، ويؤكد أنها باتت عوامل نقمة وثورة في قلوب المناضلين الجبابرة، الذين يستطيعون الانتصار على آلامهم، والنهوض بعزّة وشمم لجمع الشمل وإعداد العدّة لخوض معركة التحرير، فإمّا أن يحقّقوا النصر، أو يرِدوا القبر..، ويقول في «نشيد الخلاص»: [الطويل]

---

(١) ديوان ولم تمطري يا غيوم، ص ١٣٧ و ١٣٨. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠م.

(٢) ديوان ابتسام الضحى، ص ٨٠.

من الخيمةِ السوداءِ من كهفي الصخري ... سأَمضي إلى التحريرِ والمجدِ والنصر
ومن هُوَّة الحرمان والفَقْرِ والأَسى ... سأَمضي إلى الإنصاف والخَيْرِ والبِشْر
سأَجْمَعُ أشلائي وأَمضي مُيَمِّمًا ... إلى اعِزَّة الشمّاءِ في همّةِ النَّسْر
لئِنْ طالَ مَكْثِي في الدياجيرِ إنّني ... على جمرةِ الإصرارِ مُنْتَظِرٌ فَجْري
سيبْزُغُ فَجْري رغمَ ما جمعَ العِدا ... من القوةِ الرَّعناءِ والكَيْدِ والمَكْر
سيبْزُغُ فجري رغمَ مَنْ خانني وَمن ... غداة طلبتُ العونَ قد حَفَروا قبري
لقد شَرَّدوا شعبي وأَفْنَوا جُنُودَهُم ... وباعوا حياةَ العِزِّ والمَجْدِ بالتِّبر
فلسطينُ لا تأَسي فإنَّا برغمنا ... هجرناكِ يا أم الغَطارفة الغُرّ
وُرُودُ حياضِ الموتِ أَشْهى مُرادِنا ... فإمّا نَنَالُ النصرَ أو لا فَلِلْقَبْر[1]

وهكذا يبقى الأمل بالعودة بمثابة «الشعاع الذي يضيء ظلام النفي والحياة» ومهما ادلهمَّ الليل ومهما طال، فإنّه لن يمنع إشراق فجر النصر.

إنّ شعباً يقول ويفعل، ولديه مثل هذا الحنين، والإصرار على النضال والعودة، ويدأب على تذليل الصعاب، ويجود بالتضحيات، لا بدّ أن يستجيب له القدر، طال الزمن أم قصر.

تاسعاً: شعر وجداني

إن الشعر الوجداني يرتبط بكل إحساس أولي باللذة أو الألم، وقد يرتبط بضرب من الحالات النفسية من حيث تأثرها باللذة أو الألم في مقابل حالات أخرى تمتاز بالإدراك والمعرفة ويدرك ذلك كلّه بالحواس الباطنة.

ومن الطبيعي إذاً أن يشمل الشعر الوجداني الألم والحزن والحبّ والغزل، وذلك يؤلف جزءاً كبيراً من حياة الشعراء عادة، حيث أن النزعة إلى

---

(١) ديوان «الضائعون»، ص ٣٣. عمّان ١٩٦٠م. ومحمد شحادة عليان: الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث، ص ٥٤.

هذا الشعر طبيعة متأصّلة في نفوسهم، وهو تعبير عن معاناة أو عاطفة وحنان يظلاّن كبيرين وحارّين لديهم. وكثيراً ما يخضع الشاعر في شعر الغزل للمحبوبة، فتراه يخاطب محبوبته راجياً رضاها وسعادتها، ولهذا فهو لا يتكلّف الحبّ بل يحسّ به إحساساً عميقاً. والألم والمحبوبة والطفل والصديق هم مصدر الحياة الهانئة، ومهل الإلهام والسعادة، و«الوجدان الذي تداعبه المرأة ويهزه الجمال الروحي، لا يمكن إلا أن ينتج شعراً مؤثراً، سماته الرقة والعذوبة»(١).

ويبدو لي أن الشعر الوجداني الفلسطيني يتّجه في مسيرته اتجاهين واضحين يرتبطان بالاتجاه الوطني:

الأول: شعر يختصّ بالأم والصديق والطفل والألم والمعاناة ونحو ذلك، ويمتاز هذا الشعر الوجداني بصدق العاطفة والوفاء، وتحمُّل الآلام، وهو يوافق الحياة، ويسهم في حلّ المعضلات، وبعث الطمأنينة والراحة، ومنه:

١ ـ قول الشاعر محمد العدناني في «ملحمته الشعرية»:[مشطور الخفيف]

وقفت نفسَها على ابنٍ وحيدِ
لفَّه اليُتْمُ بالهموم السودِ
وسقاهُ الزمانُ كأْسَ الجحودِ
. . . . . .
فانبرتْ أُمُّهُ لحربِ الزمانِ
واقتناص المنى من الحَدَثانِ

(١) مصطفى محمد الفار: الشاعر أبو سلمى أدبياً وإنساناً، ص ١١٨.

. . . . . .

واجتياح الحزنِ الرهيبِ العنيدِ

بعدما شَدَّ في الحِمَى الأَطنابا[1].

ثمّ يصوّر الشاعر مخاطبة الطفل لأمه قائلاً: [مشطور الخفيف]

قال: يا أُمُّ! هدِّئي الرّوعَ إنّي

هالني أن أراكِ بركانَ حزنِ

يقذفُ الدمعَ لاهباً فوق جَفْني

. . . . . .

فأَميطي عن نفسكِ الأَرزاءَ

ثم بُوحي بما دهاكِ وساءَ

علَّني أغسل الأَسى والتجنّي

مِن زمانٍ أبلى الأنامَ ضِرابا[2]

من الملاحظ أن هذين المثلين جاءا على وزن البحر الخفيف المشطور، ويصوّر الأول منهما وقف الأم نفسها على العناية بابنها اليتيم، الذي تجرّع كأس الحزن والأسى والحرمان صغيراً، فانبرت أُمُّه للعناية به، تحنو عليه، وتلبّي حاجاته، وتربّيه تربية صالحة، وتغمره بعطفها وحنانها. إنّها تضحي براحتها وسعادتها في سبيل خدمة ابنها وسعاده، وهي نبع العطاء، ورمز

(١) الأمومة، ملحمة شعرية، ص ٦٤. المكتبة العصرية. صيدا ـ بيروت، ١٩٥٧م.
(٢) المصدر السابق، ص ١٢٠.

obeikandi.com

الإخلاص والوفاء، ومصدر العاطفة و لحنان.

ويصوّر الشاعر في المثل الثاني تحسُّس الطفل لعناية أمه به وعنائها، وتقديره لجهودها، وتأثّره البالغ لحزنها، فأنهمرت دموعه غزيرة رثاءً لحالها، ولم يجد ابنها في وسعه إلاّ مواساتها، والطلب إليها أن تخفّف من همّها وتعبها، وتصارحه بما يشغل بالها، علّه يخفف عنها الألم والأسى.

وفي الصورتين صدق عاطفتين، وصدق موقفين نبيلين لكل من الأم وابنها، يبعثان الرضا في النفس، والثقة والإعجاب بدور الأم الكبير....

٢ـ ويبكي محمود درويش شوقاً إلى لقاء أُمه، مصدر العطف والحنان، ويقول: [مجزوء الكامل]

وبكيتُ يا أُمّاهُ، أعصابي أنابيبَ الدُّموع!
قالوا لقاؤكِ في الربيع، جاءَ يا أمي الربيع
لا فرق غير اللون يا أُمّاه في الكون الوسيع
وهمّ مواعيدُ الربيعِ بلا حنوُّكِ.. والولوع!..
أمّاهُ يا بستان أيامِ الطفولةِ والوِداد!
إنْ كانَ في الدنيا لهيبٌ لا يصيرُ إلى رماد
فعواطِفِي لك أنتِ يا أُمّاهُ بركانُ اتّقاد
يا لونَ أُمي! أَيَذْكُرُني الأقاربُ في بلادي[1]

لم يتمالك محمود درويش نفسه من شدّة شوقه لأمه. بعد أن فرّقتِ النكبة بينهما، فبكى بكاءً حاراً وغزيراً، دلّل عليه بـ «أنابيب الدموع»، ولم يَعُد يطيق صبراً على موعد اللقاء في الربيع، وجاء الربيع بلون أمّه، لكن

(١) ديوان عصافير بلا أجنحة، ص ٥٩ و ٦٠. دار العودة، بيروت، د.ت.

اللقاء لم يتم، لأنّ عودة المشرّدين لم تتمّ. . ، وفقد الشاعر اللذة بالربيع بفقد اللقاء مع منهل الحنان وبستان طفولته وحبّه، فاشتعل قلبه شوقاً، وباتت عواطفه كالبركان الذي لا يخبو ولا ينطفىء.

ويرجو في النهاية أن يذكره أقاربه في بلاده كما يذكرهم.

إنّها صورة واضحة لعاطفة صادقة متأججة، وحرقة كبيرة عاشتها جماهير هذا الشعب في الداخل والخارج، بعد أن تمزّق الشمل، ووقع الجميع فريسة القيود وشظف العيش وقسوة الظروف.

الثاني: شعر يختصّ بالحبّ والجماهير، وهو كثير نسبياً عند معظم شعراء فلسطين، لأن هذه الموضوعات كانت وما تزال شاغلهم الأكبر، وقد طغت قضايا الوطن والجماهير على ما سواها، ومزج بعضهم بين حبّه لوطنه وحبه لفتاته، مثلما فعل الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وتحول العشق إلى أرض الوطن عند محمود دوريش في مواقف عديدة.

وممّا يجدر ذكره أنّ هؤلاء الشعراء تحدّثوا عن الحب والهوى، وشكوا الصبابة والجوى، وتشوقوا إلى المحبوبة، وهفت قلوبهم إلى لقائها على تفاوت بين الشعراء في عدد هذه القصائد[1]، وفي مقدمتهم إبراهيم طوقان.

٢ـ وها هو الشاعر الكبير عبد الكريم الكرمي يبدأ قصيدته بالإعراب عن اللوعة والألم والتوجّع لفقد فلسطين: وينتهي بمخاطبة ثعالب الأمّة وسفّاحيها المدّعين المروءة والوطنية، فيقول: [الخفيف]

لغةُ الدمع أم بيانُ الجراحِ ... وصدى اليتم أم أنينُ الأضاحي
يا فلسطينُ! أين تربتُكِ العذ ... راءُ؟! تفتضها يد المجتاح

(١) كامل السوافيري: الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص ١٤٥.

خرّ قلبي على التراب خضيباً بشظايا الأعراضِ والأرواح!...
أيها النازحون! ماذا لقيتمْ غير دنيا الآلام والأتراح
وحملتم ذُلَّ السؤالِ ثقيلاً بعد تاريخِ ثورة وكفاح
قل لمن يدّعي المروءة أَقصِرْ وامسح اليومَ دمعةَ التمساح
قل لمَنْ يدَّعي المروءة ما كنـ ـتَ عليها إلاَّ يد سفاح[1]

وهكذا فإن أبا سلمى يمزج بين التوجّع والبكاء، وبين عتاب الحكام والزعماء المتلونين المتظاهرين بالبكاء والألم، بعد أن شهدا ما حلَّ بالوطن والشعب.

ومن يدقق النظر يلمح تحسُّس الشاعر الدائم لهول الكارثة، وتأثره العميق ولوعته وبكاءه على الضحايا والجرحى والأيتام والأرض المخضبة بالدماء، والكرامات التي انتهكت حرمتها، ومعاناة النازحين، وأنه يخلص إلى كشف مؤامرات الزعماء والحكام وتجار الوطنية الظالمين لشعبهم، هادفاً إلى الإطاحة بهم والثأر لفلسطين.

٢ ـ ويربط محمود درويش بين الحبّ والوطن بصورة جميلة وعميقة، إذ يقول: [مجزوء المتقارب]

الأرض أم أنت عندي
أم أنتما توأمان
من قدّ للشمس زندي؟
الأرض، أم مقلتان؟
سيان، سيان... عندي

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ١٦٨ و ١٦٩.

ثم يقول:

وطني جبينك فاسمعيني
لا تتركيني
خلف السياج
كعشبة بريَّة
كيمامة مهجورة
لا تتركيني
. . . . . .
وتعوَّدي أن تحرقيني،
إن كنتِ لي،
شغفاً بأحجاري بزيتوني
بشباكي. . . بطيني
وطني جبينك، فاسمعيني
لا تتركيني[1]!

نستطيع أن نجد أجمل ما غنَّاه محمود درويش للحب في مجموعة «آخر الليل»، حيث يرتقي الشاعر فيها إلى درجة عالية من القدرة الفنية، ويربط بين الحب والوطن، كما أشرنا آنفاً: فهو يساوي في الحب بين الأرض والحبيبة، ويطلب من الأخيرة أن تسمعه ولا تتركه، حباً بل شغفاً بحجارة وطنه وزيتونه، ومنزله، لأنه يرى وطنه بمثابة الجبين الناصع لها، إنّه

(١) النقاش ـ رجاء: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص ٢٠٣. دار الهلال، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

obeikandi.com

مزج جميل، ومساواة لطيفة. . ، تدلّ على أنّ الشاعر يمسك بزمام أمره ولن يتخلى عن الحكمة أو يحيد عن سبيل الرشد قيد شعره، وليس هذا فحسب، بل إنّه يريد أن تجعل حبيبته الوطن جبيناً لها. وموضع حبها وتقديرها.

إنّه نمط جديد من الحب يبرز في الشعر الفلسطيني، يؤكّد التزام الشعراء بحب الوطن والجماهير ومعالجة قضياهما، دون تردّد أو ملل.

ويسجّل رجاء النقّاش عدّة ملاحظات على التجربة العاطفية في شعر محمود درويش، تتلخّص في ما يلي:

الأولى: أنّ محمود درويش يعبّر دائماً عن عواطف قوية غير مريضة ولا ملتوية ولا ذليلة، حيث أنّ العاطفة عنده تتحوّل إلى كبرياء ورجولة وكرامة للقلب العاشق والوجدان المحبّ.

الثانية: تبيّن أن شعر محمود درويش العاطفي كثيراً ما يمتزج امتزاجاً عميقاً بالطبيعة، ذلك لأنّه عاشق يعيش في العراء، والهوى في أرضه حزين، ممتزج بالمطر والنسيم والنجوم. .

الثالثة والأخيرة: هي أنه يلتفت كثيراً إلى «العيون»، فتلعب دوراً كبيراً في قصائده العاطفية، لأنها بالنسبة إليه وطن وطمأنينة وعش جميل، يختبىء فيه عصفور قلبه من العواصف والأحزان[1].

ومحمود درويش «صاحب شاعرية خصبة وعاطفة عميقة وقلب كبير ونظرة إنسانية مليئة بالحب للآخرين»[2]، وهو شاعر «الحنان» إلى شعبه وأهله، الساعي إلى جمع هذه «الأخوة الممزّقة»، وهو أيضاً شاعر مناضل.

(١) رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلّة، ص ٢٠٧ و ٢٠٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٩.

تَصَوَّر كلماته إذ يقول:

مليون عصفور

على أغصان قلبي

يخلق اللحن المقاتل[1]

عاشراً: الرثاء

يمرُّ الإنسان بثلاث مراحل، مرحلة الحياة الدنيا، ومرحلة البرزخ، ومرحلة الحياة الآخرة.

ومن المعلوم أن الحياة الدنيا لكل إنسان تنتهي بالموت، وحينئذ يتأثر الأحياء بفقد القريب أو الصديق أو المناضل أو العالم، ويرثونه بما تيسر لهم من شعر أو نثر. ويمكن اعتبار الرثاء في هذا القطر من الروافد الكبيرة التي تصبُّ في الشعر العربي المعاصر. وقد شارك شعراء فلسطين ـ وفي مقدمتهم إبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي وكمال ناصر ـ في رثاء عدد من الزعماء والأدباء والمناضلين والأصدقاء، ومن ذلك قصيدة لعبد الكريم الكرمي في رثاء المقاتل الشهيد العقيد عدنان المالكي[2]، الذي أبدى شجاعة فائقة في مقاتلة المستعمرين والصهيونيين حتى سقط شهيداً في سبيل الله والوطن، وممّا قاله أبو سلمى في رثائه: [الخفيف]

إيه عدنان!.. أيها الفارس المعـ ـلم تزهو بك العُلا والقصيد
يا شهيداً أطلَّ من عالم الغيـ ـب وقد ضاق عن مداهُ الوجود
يا ذُنَابى المستعمرين!... مضى الليـ ـل وقد أشرق الصباح الجديد

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٨ و ٣١٠.

(٢) كان العقيد عدنان المالكي معاون رئيس الأركان العامة للجيش السوري، وقد استشهد في ٢٢ ـ ٤ ـ ١٩٥٥ .

نحن حرب على الطغاة وأنتم شهِدَ الله سيِّدٌ ومَسُود
إيهِ عدنانُ! . . هل يفي حقُّك الشعـ ـرُ وقد قُطِّعَتْ عليك الكُبُود
جَمَعَتْنا مبادئٌ وجهادٌ ونَمَتْنَا أُبُوَّةٌ وجدود
وَحَمَلْنا منك الرسالةَ ناراً ذِمَمٌ في رقابِنا وعهود
كيف ننسى دماً يضيءُ لنا الدر بَ وتمضي على سناهُ الحشود
كنت رمزاً للجيش والجيشُ رمزُ الشعب والشعبُ خالدٌ لا يبيد[1]

يبكي الشاعرُ الشهيدَ البطل، ويفتقده مثلما تفتقده ساحات الوغى والعُلا، والقصائد التي طالما تغنّت ببطولته، ثم يذكّر المأجورين الخائنين من أذناب المستعمرين بأن عهد الظلم والاستبداد قد ولّى، وأشرقت أنوار الثورة معلنة الحرب على الطغاة، من الأعداء الذين يصنّفهم الشاعر إلى سيِّد ومسود، ويعترف بأنّ رثاء القائد عدنان، رفيق الجهاد، الأخ في العروبة وصلة النسب، لا يفيه حقه ولو تعددت القصائد، ويتعزّى عن فقده بحمل رسالته في النضال، معترفاً بأنّ دم الشهيد يضيء لأمّته الدرب، ويختتم أبو سلمى قصيدته بالإشادة بمن كان رمز الجيش، ويؤكد أنّه سيبقى خالداً في ضمير الشعب.

وقد جعل الشاعر هذه القصيدة على وزن البحر الخفيف التام حتى تتّسع لبث لظى اللوعة والحرقة بفقد الشهيد والإشادة بميزاته، ولتأكيد رابطة الأخوة العربية والأهداف المشتركة، ومتابعة المسيرة من جهة ثانية.

وممّا لا شك فيه أنّ الشاعر أجاد في إبراز صور متعددة ومعانٍ كثيرة في كلمات وأبيات قليلة وواضحة، تمتاز بجزالة اللفظ وصدق العبارة وحسن الإيقاع، ممّا يرقى بهذه القصيدة إلى أن تُعَدَّ من روائع الشعر الوطني.

---

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٢٣١ ـ ٢٣٣. وانظر الأبيات التي ذكرت لهارون هاشم رشيد في هذا الكتاب في ص ٣١٥، فهي من الشعر الوجداني الوطني.

أحد عشر: الوصف

لشعراء فلسطين باع طويل في الوصف لمختلف مظاهر الحياة والمشاعر؛ ولقد احتلّ الوصف ركناً واسعاً وجميلاً في جنينة الشعر الفلسطيني، فوصف أحدهم[1] الطائرة حين رآها لأول مرّة تحلّق في سماء القدس، ووصف بعضهم الطبيعة والطيور، ومشاعر الناس في المناسبات، وغير ذلك كثير.

لقد وصف الشاعر معين بسيسو المهرّجين في قصيدة «مالك الحزين»، فقال:

المهرّجونْ
عيونُهم مطرَّزاتٌ فوق مِقْبضِ السكّينْ
وأنتَ صِرْتَ كالغزالِ
فقد مَضَوا يُطارِدُونَهُ يا مالكَ الحزينْ
حذارِ كلُّ هٰذهِ «البلابل» التي ترى،
مصفوفةً: هُناكَ فوقَ الأرصفهْ...
منظومةً في خيطِ عِقْدٍ واحدِ
تصيحُ كلُّها مزيَّفَهْ
وليس فيها بلبلٌ أمينْ
يا مالِكَ الحزينْ[2].

(١) عبد الرحمٰن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، ص ١٩٧.
(٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٤٩٠.

إنّها صورة رائعة تشبه صور كليلة ودمنة في جري الأحداث على ألسنة البهائم والطيور، فشبّه الشاعر الإنسان المستقيم الأمين، المظلوم، بمالك الحزين، وشبّه المنحرفين المزيفين المتملّقين المرائين بالمهرّجين.

كان المهرّجون ينتظرون ذبح مالك، الذي أصبح كالغزال في الهرب، اضطراراً، واستمرّ المهرّجون بملاحقته في لسعي والنميمة كالذي يأكل لحم أخيه ميتاً إذا كرهه واغتابه، ولكن الشاعر لا يلبث أن يحذّره من هؤلاء الذين يشبّههم بالبلابل في «المظهر والتغريد»، وينطبق عليهم قول لشاعر: [الكامل]

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

اثنا عشر: متفرقات

إنّ الشعر الاجتماعي غزير، ويشمل جوانب أخرى عديدة في الصديق، والعدو، والتهنئة، والتعزية، واليتيم، والطفل، والأسير، والمريض، وآفات اجتماعية عديدة، وغير ذلك كثير، وبما أنّ بعض الباحثين تعرضوا لمعظم هذه الجوانب، وفي مقدمتهم محمد شحده عليان[1]، لذا فإني سأكتفي بنماذج قليلة في هذا الميدان أو ذاك، راجياً ممّن يرغب الاطلاع على المزيد من هذا الشعر أن يعود إلى المصدر المشار إليه آنفاً، وفيه ما يغني ويعجب.

أ- في الصديق

يهتم أبناء فلسطين بالصديق ويكرمونه. ويؤَدُّون له الخدمات الممكنة، ولهذا وجدت صداقات حميمة في صفوف الفلسطينيين، وتميزت بالإخلاص والودّ والوفاء.

يقول كمال ناصر إلى أحد أصدقائه: [الخفيف]

(١) راجع كتابه: الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث (رسلة دكتوراه).

يا صديقَ الشباب إن قصَّرَ الشعرُ فحسبي ما في دمي والمشاعر
هٰذه نغمةُ الوفاءِ أُغنِّيها وِدّاداً وإنني بهِ لَأُفاخر
إنّما العمر وقفةٌ وحبيبٌ وصديقٌ نشكو إليه المصاير
أنا إن قصَّتِ الحياة جناحي سوفَ أبقى كالنَّسْر في الأُفق طائر[1]

ب - في التهنئة

هنّأ الشاعر حسن البحيري صديقه السيد «حسين خليل» يوم خطبته فقال: [الطويل]

تُهَنِّئُكَ الرُّوحُ التي طالَ شَوْقُها ليومٍ أَهَنَا، بالزَّهرِ، وهو أستطاعتي
وأُقسمُ لوأَنّي ملكتُ رَغائبي لقدَّمتُ رُوحي «يا حُسَين» بباقتي[2]

ثم هنّأ أيضاً صديقه ذاته يوم زفافه، فقال في العروسين: [الطويل]

زهورُ الأماني، «يا حسينُ» تبسَّمَتْ
وفاحَ شَذَاها مُزْدِنّاً بزفافِكما
فلا زَالتِ الدنيا تقولُ لَكَ المُنَى
ولا زالتِ الأَفراحُ تزهو بِدَارِكما[3]

ج - في التعزية

وشارك الشعراءُ في تقديم التعازي في حينها، وهي كثيرة، ومنها قصيدة لإبراهيم طوقان بعنوان «تعزية البيت الهاشمي»، قال فيها: [الطويل]

بني هاشم بين المنايا وبينكم تراثٌ وما تَغْفُو المَنَايا عن الوِتْرِ
مَضَتْ (بأبي الأشبالِ) يستشهدُ الوغى ورايَاته فيها على دولِ الغدرِ[4]

---

(١) الآثار الشعرية، ص ٨٣.
(٢) الأصائل والأسحار، ص ١٤٠. القاهرة، طبعة أولى، ١٩٤٣.
(٣) المصدر السابق، ص ١٤٠.
(٤) (أبو الأشبال) هو المغفور له صاحب الجلالة الملك حسين بن علي بن عون.

وما نكّبَتْ عن (شاكر) بعد (فيصلٍ) وغالت (علياً) واللواعجُ في الصدرِ[1]
مقاماتُ أقيالٍ تغيب شموسُها وغاراتُ أبطالٍ ترِدْ عن النَّصرِ
بني هاشمٍ لا أَخْمَدَتْ جمراتِكم ولا أَغْمَدَتْ أسيافكم نُوَبُ الدَّهرِ
بأوْجُهِكُمْ تنفضُ حالكةُ الدُّجى وأيْمانُكُم تَرْفضُ مُجْفِلةُ القطرِ[2]

يشير إبراهيم إلى أن بني هاشم قد خلّفوا تراثاً مهماً بدأ منذ عهد الرسول ﷺ، غير أن المنايا لا تحيد عن الصالحين، فاغتالت الواحد منهم تلو الآخر، وحرمتنا من شموسهم، والانتصارات التي كانوا يحققونها، وبالرغم من ذلك فإنّ ذكراهم ستبقى بين قومهم،وقوتهم بل بطولتهم ستبقى مستمرة، رغم مصاعب الدهر.

وأخيراً يدلل الشاعر على أنّ الشعب بحاجة إليهم، ذلك لأنّه بهمتهم تنكشف الظلمات، وتزول المصاعب والكربات، وتندحر الأعداء...

إنها أبيات قليلة وردت على وزن البحر الطويل التام، تتضمن معانيَ كثيرة ومهمّة، وهذا دليل على قدرة الشاعر في النظم وحسن الأداء، وتمكّنه من اللغة، وانسياق الكلمات إليه، فتنصبّ فياضة سهلة على قلبه ولسانه، فيختار منها ما يناسب كل مقام...

د ـ في الألم

عانت جماهير الشعب الفلسطيني المصائب، وتجرعت كؤوس الألم، سواء في الأرض المحتلة، أو في بلدان الاغتراب، فصبرت، وصمدت أمام العواصف العاتية، التي صهرت الرجال، وانبثق من قلب الجحيم أبطال،

---

(١) (شاكر) هو المغفور له الأمير شاكر بن زيد من أبطال العرب.
(٢) ديوان إبراهيم، ص ١٦٠.

أشداء على الكفار، يجاهدون من أجل تحرير لوطن، وفي هذا المعنى يقول الشاعر محمود صبحة: [البسيط]

تعيشُ مع عُظَمَاءِ النفسِ يا ألم ... وفيكَ تسطعُ شمسُ المرءِ والهِمَم
وأنت للنَّفْسِ مثلُ النارِ تصْهَرُها ... فتستحيل نضاراً، خلقها الشمم
ومن يُحِبُّ حياةً ما بها ألم ... تنكَّرتْهُ، وفيه الرِّزقُ يُقتسم[1]

يعبّر الشاعر عن تمرّس شعبه في تحمّل الألم والمصائب، وقهر المصاعب، ويردّد فيهم قول المثل: «بالنار يختبر الذهب وبالمصائب يختبر الرجال»، فالألم يصهر النفوس الأبيّة ويجلوها، فتزداد توهجاً وإشراقاً، أما الذين لا يطيقون ذلك فيسقطون، وتتنكّر لهم الحياة، وتسلب حقوقهم وأرزاقهم.

هـ ـ بين آفات المجتمع وآماله

الآفات داءٌ فتّاك تنخر في جسم المجتمع الذي تحلّ فيه فتعيقُه عن التقدم والنجاح، وتفقده الراحة والسعادة، أو الكرامة والتقدير، أو كليهما في وقت واحد، وإذا قويت واشتدّ خطرها فإنها تهدم المجتمع الذي تحلّ فيه وتؤدي به إلى الضعف والانحلال، والسقوط في درب الحياة الطويلة، التي تحتاج إلى العناية بالأخلاق، والحفاظ على المبادىء، والاهتمام بالشرائع السماوية، والعادات والتقاليد الكريمة، والقيم والمثل السامية.

لقد كان يجدر بالعرب أن ينهضوا بعد النكبات التي حلّت بهم، ويعالجوا أسباب فشلهم، والآفات المنتشرة في صفوفهم، ولكنّهم لم ينجزوا إلاّ القليل ممّا يتوجّب عليهم في هذه المجالات، ولهذا تستمر الشكوى من سوء الحال، وخيبة الأمل في تحقيق الكثير من الآمال المنشودة، وبمقدمتها

(١) عاشق السفر، ص ٣٢٤.

تحرير فلسطين، و﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[1]، ولا بدّ للمجتمع الصالح من أن يُؤثر الفرد فيه مصلحةَ شعبه ووطنه على مصلحته الخاصة، أما إذا انقلب إلى عكس ذلك ساءت حال المجتمع، وحلّت الأزمات والنكبات، وازدادت المعاناة، وتجرّأ عليه الأعداء، فيهوي لقمة سائغة في أيديهم.

وهذا هو الشاعر الناشىء حسين إسماعيل الخطيب[2] يخاطب الشاعر الوطني الكبير «أبا القاسم الشابي»، في قصيدته المشهورة «إرادة الحياة»، التي جاء فيها قوله: [المتقارب].

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدَّ لليل أن ينجلي ... ولا بدّ للقيدِ أن ينكسر[3]

فيبدي ألماً وأسفاً لحمل الشابي هموم العرب وعذاباتهم في قلبه، آسفاً لتخبُّط العرب، وبعدهم عن الاستجابة إلى دعوة الشابّي وأمثاله، حتى ساءت حالهم، وحلّت بهم النكبات، ورغم ذلك ما زالت الآفات تقوى وتتفاعل وتنخر في صفوفهم، ممّا ينذر بخطر شديد يحدق بالعرب جميعاً.

يقول الشاعر حسين الخطيب في قصيدته «عفواً أبا القاسم»: [المتقارب]

---

(١) سورة الرعد، الآية رقم ١١.

(٢) شاعر فلسطيني من بلدة دير القاسي قضاء عكا، يقيم حالياً في لبنان. عمل في مجال الحاسوب «الكمبيوتر» مدة أربعة عشر عاماً في الإمارات العربية المتحدة. فاز بالجائزة الأولى في مبارتين شعريتين في جمعية المعلمين في الشارقة، في الإمارات العربية المتحدة، وهو يعدُّ حالياً رسالة ماجستير في اللغة العربية في الجامعة اللبنانية، في صيدا. له عدة دواوين مخطوطة. وقد زودني ببعض قصائده، منها القصيدة التي سوف يرد ذكرها بعد قليل.

(٣) أغاني الحياة «ديوان أبي القاسم الشابّي» ص ١٦٧. دار مصر للطباعة، ١٩٥٥م.

أيا من نشيدك هزّ القلوب ... وجاوزَ حَدَّ الثريّا صداه
وحَمَّلْتَ قلبَكَ همّاً دؤوبْ ... ليهوي صريعاً بأيدي الجناه
هَلُمَّ لتنظرَ حال الشعوبْ ... غدتْ مثلَ عيرٍ رماها الرُّماه
تُطَيِّبُ أعتابَ تلك الدروبْ ... بلثم الأيادي وخفْض الجباه
تغنّي وترقُصُ فوقَ الخطوبْ ... إذا الشعبُ يوماً أراد الحياه
فلا بدّ من هزّ ردْفٍ طروبْ ... وطبلٍ وزمرٍ وآخٍ وآه
هو العيش أضحى ٱمتلاءَ الجيوبْ ... و«عفْشٌ» وفرشٌ وكرشٌ وجاه
غدونا لدى الغرب شاةً حلوبْ ... نبثُّ العطايا بكل ٱتجاه
وفي كل بيتٍ رضيعٌ سغوبْ ... يموتُ ليحيا حفيدُ الغزاه[1]

لقد عانى الشاعر قسوة الغربة وشظف العيش، وشهد عن كثب حال العرب، فأبدى نقداً موضوعياً لهذه الحال، وجاءت على وزن البحر المتقارب التام، بلغة سهلة موحية، تدلّ على نظر ثاقب، وتهكّم واستغراب، وسخرية ممّا آلت الحالة إليه، حتى انحدر الكثيرون عن جادّة الطريق، وأصبح همّهم الجاه وجمع المال، والعناية بمصالحهم الشخصية دون غيرها غالباً، فضلاً عن الاهتمام بالطعام اللذيذ، والرّياش الأثير، والسهرات الراقصة، والأغاني الماجنة، وكؤوس الخمر الملوَّنة، وما يتبع ذلك من عبث وفساد، رغم الخطوب والنكبات.

ومن غير شك أن الشاعر يقارن بين الحال التي دعا إليها أبو القاسم ـ علَّها ترضي ربّ العباد وتقود إلى النصر الذي ننشده جميعاً ـ وبين الحال السائدة، المليئة بالمتناقضات في أدق الظروف وأقساها. وتفوح القصيدة بنقد الشاعر الخطيب للواقع، وتمنّياته على العقلاء التعاون في معالجة هذه الآفات وغيرها، حتى نستطيع تحقيق الآمال التي نصبو إليها، ولا يبقى العربي أشبه

(١) قدم لي الشاعر الخطيب هذه القصيدة مع عدة قصائد أخرى. وسغوب: جائع مع تعب.

بشاة حلوب في خدمة المستعمرين، يبذّر الأموال هباءً. ثم يذكّرنا الشاعر بالحكّام العرب، الذين يستبدّون بالفقراء ويستغلّونهم، ولا يرثون لحالهم غالباً، موحياً إلى الجماهير بضرورة الصحوة والنهوض.

لقد أحسن الشاعر وصف حال العرب، بأسلوب ساخر، ينمّ عن ألمٍ وحسرة، ووعيٍ وتمنياتٍ صادقة، فأخبر أبا القاسم بابتعاد العرب عن المنهج الذي تمنّاه ـ الشابّي ـ عليهم، والآمال التي طمح إلى تحقيقها.

و ـ الأطفال

يدرك الناس أن مرحلة الطفولة هي أجمل مراحل الحياة، حيث تتجمع فيها البراءة والراحة من الهمّ، والبعد عن الأذى والخصومة والعداء كما هي الحال لدى بعض الكبار. يكون الإنسان في هذه المرحلة أكثر طاعة وقبولاً لتلقّي العلم والأدب، وأكثر حاجة إلى التنعم واللطف والرعاية والمساعدة، وأقلّ قدرة على تحمّل الألم والمسؤوليات: والتغلّب على المصاعب.

ولمّا كان الطفل مثل النبتة الغضّة.. فهو يحتاج إلى العناية والتنشئة الصالحة القويمة، ولهذا شارك الشعراء في إيلائه قدراً وافراً من العناية، فخصّوه بالأغاني والأناشيد المتنوعة التي تسلّيه، وتسرّه، وتصوّر رغباته، وتعبّر عن أحلامه، وتلبّي حاجاته، وتنير عقله، وتنمّي قدراته، وتربيه تربيةً سليمة، تعود عليه وعلى وطنه بالنفع العميم. والأم غالباً هي أول من يباشر تلقين ابنها شيئاً من ذلك، وقد يكون لها الدور الأهم، إذا امتلكت القدرة على هذه القيادة.

ومن المعلوم أن «الغناء الملحّن المنغّم المقفى ذا الإيقاع الموسيقي الذي يخلب ألباب الأطفال في طفولتهم المبكرة، جزء لا ينفصل عن ثقافتهم

الشعبية المتوارثة جيلاً بعد جيل، وهو يشير إلى طبيعتهم الغنائية الشاعرة التي تظهر في مرحهم وألعابهم الحرّة الطليقة»[1].

إنّ الغناء المنغّم يشوّق الأطفال إليه، ويحقق الأهداف المتوخّاة منه، وقد تطوّر وازدادت أهميته، حتى أنّه لم يعد قصراً على الأطفال بل تعدّاهم ـ بعد نجاحه ـ إلى الكبار، فأصبح سبيلاً لتحقيق أهدافٍ يصعب تحقيقها بدونه.

ويُذكر أن أحمد شوقي كان أول شاعر عربي معاصر أدرك أهمية شعر الأطفال بعد اطّلاعه على أدب الأطفال في فرنسة، فكتب شعراً للأطفال على ألسنة الحيوانات والطيور، ونشره في ديوانه (الشوقيّات). وأخذت كتابة شعر الأطفال تنمو بعدئذ تدريجاً، ولكن هذه المحاولات ظلّت باستثناء مجموعة أغاني الأطفال لأبي سلمى ومسرحية الفصل الجميل لِـ «عادل أبو شنب» تخاطب الصغار بلغة الكبار[2]، وقد توخّى أبو سلمى في ديوانه المذكور ألفاظاً سهلة، وأوزاناً خفيفة مشوّقة تحمل أفكاراً بسيطة ونبيلة، تلائم مدارك الأطفال وميولهم ومتطلباتهم، وتُحبِّبهم بالطبيعة والوصف وعمل الخير، ترافقها ألحانٌ مُنسجمة وَمُتَّسِقة، فتسعد القلوب، وتهذّب النفوس، ومن أغانيه التي يُحبِّب فيها الأطفال بالطبيعة الساحرة: أُغنية راعي الغنم[3].

ويختم إبراهيم طوقان ديوانه بمجموعة من الأناشيد الوطنية المهمة والجميلة، أهمها نشيد «موطني» وهو النشيد الوطني الفلسطيني السابق، ثم نشيد «وطني أنت لي»، و«نشيد فلسطين» ونشيد «العمل»، ونشيد «فتية

---

(١) مصطفى محمد الفار: الشاعر أبو سلمى أديباً وإنساناً، ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٥ .

(٣)ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ١٢٩ .

المغرب»، و«نشيد البراق» الذي نقتطع منه الأبيات التالية: [مجزوء السريع]

لـنـا الـبـراق والـحـرم ... لـنـا الـحـمـى، لـنـا الـعـلـمْ
أرواحُـنـا أمـوالـنـا ... فـدى الـبـراق والـحـرمْ
نـحـن الـشـبـاب الـمـسـلـم ... والله لا نـسـلّـمْ
نـمـوت أو نُـكـرم ... فـدى الـبـراق والـحـرمْ
شـبـابُـنـا أهـل الـوفـا ... الـعـار أن نـتـوقّـفـا
سـيـروا بـحـقّ الـمـصـطـفـى ... فـدى الـبـراق والـحـرمْ
شـبـابـنـا سـدّوا الـصـفـوف ... قـومـوا عـلـيـهـم بـالألـوف
الله مـا أحـلـى الـحـتـوف ... فـدى الـبـراق والـحـرمْ[1]

عبّرت قصائد إبراهيم طوقان عن اتجاهه الوطني البارز، الذي يبدو جلياً في أناشيده التي تطفح ـ كسائر شعره ـ بحبه لبلاده والأماكن المقدّسة فيها والنضال في سبيلها، وهو يهدف من خلالها إلى تربية الناشئين على هذا الاتجاه النبيل...

ويبدو جلياً أنّ هذه القصيدة مطبوعة بأحاسيس الشاعر وإيمانه بحقّه، وهي متسلسلة بأسلوب سهل لطيف، يجمع بين المتعة والعبارات التي ترسّخُ ألوان المعرفة بحقّ المسلمين في البراق والحرم والأرض المقدسة. ثم يناشد الشبان برصّ الصفوف والسير للقتال ورفض التوقف والاستسلام، مستعذباً التضحية بالأموال والأرواح فدى البراق والحرم.

**

(١) ديوان إبراهيم ص ١٩٧.